قصة قصيرة

أصابع السيدة ولحن الزهور

علي بدور

كانت النافذة نصف المغلقة قد امتلأت بجسم امرأة كانت تحاول أن تشتري شيئاً من الزهور، وعلى وجهها ابتسامة أطفأتها ريح عاتية.. فبدت نصف مضيئة، نصف مظلمة، والسكون يلفها، فلا يغلب الضياء فيها ما بدا من ظلامها.

الزهور معبّأة في الأواني، أعناقها تتطاول عبر أوانيها في جميع الاتجاهات، عبيرها مصفّى..ولكنه أسير..

المرأة لا تزال تسد نصف النافذة المطلة على المقهى، تنحني قليلاً لتأخذ الزهور من الأواني، تقف قليلاً، تنحني فيعطي جسمها امتلاء شاباً يتفجر رغبة مكبوتة. ثيابها ضيقة، جسمها أسمر، لا تبالي الأعضاء بنداء الحرية.. يداها وأصابعها تتحرك بين الزهور كأنها تعزف. لحن الزهور يتناغم ويتموسق.. لا شيء يستقر.. كل ما حولها يضج.. الزهور بأعناقها تسألها الخلاص مما هي فيه، ولكنها أحبت أن تختار، لا تستطيع أن تحرر الجميع. ستظل الحرية مطلباً.

عندما جمعت بأصابع يدها اليسرى باقتها المنتقاة، كانت زهور متنوعة قد اجتمعت من جديد. لحن موسيقى متناسق ومنسجم يبدو لأول وهلة صادراً عن قطعة موسيقية شيقة، النافذة تمتلىء، وتخلو بين لحظة وأخرى. جسم السيدة كان لدناً.. رغباته لا تحصى.. كان يشكو عطشاً أزلياً.. الارتواء بعيد، أين منه ذلك الارتواء السريع من الرغبة في اقتناء باقة زهر؟!

عاودت المرأة روح التفكير الخالص فيما حولها. ابتسامتها لا تزال نصف مضيئة نصف مظلمة. كلاها ارتسم على الشفة الواحدة. تفكيرها يتضاءل وهي تجمع باقة الورد، همومها ثقيلة وهي تخطو الخطوة الأولى خارج عالم الزهور..

النافذة تبدو شبه خالية. السكون يخيم من جديد على الزهور الباقية أبداً في أوانيها تنتظر من ينتشلها ليجمعها من جديد في باقة تشبه المقطوعة الموسيقية المتناسقة.

النافذة رغم خلوها من جسم السيدة الذي كان يملؤها تحس ببقية رغبة في اقتناء هذا الجسد الذي تعج فيه رغبات شتى، ولكن حركة الظل والنور عبر النافذة، كانت تخترق هذا الجسد..فتتفتح فيه عيون معبرة عن أشواق دفينة مكبوتة توشك أن تنفجر.

السيدة وهي تمضي كانت الزهور في قبضة يدها ساكنة. العبير سكن عن الحركة. الزهور رغم تآلفها أول اللقاء لم يبق فيها ما يحركها للتلاقي من جديد. عالم الأواني الذي كان يفرقها وهي جد مشوقة للقاء كان لقاؤها محكوماً بقبضة السيدة عليها. قبضة السيدة على الباقة كانت لا تترك لها حرية اللقاء الحرّ.

هموم رأس السيدة لا تحصى.. خطواتها متباطئة. إنها ذاهبة للقاء ذلك الرجل الذي كانت تحب. تريد أن تودعه نهائياً بباقة الورد، إنه يعذبها، يشقيها، لا تستطيع أن تفهم رغباته المتناقضة. لا تعلم إذا كان حقاً يشتهيها. إنها تكره الاشتهاء ولكنها تفضله مغلفاً بالحب.

الرجل لا يستطيع أن يحب دائماً. الحب الدائم يتطلب حساسية مرهفة دائمة التوتر، الروح الإنسانية لا تستطيع أن تظل متوترة دائماً، ففي ذلك هلاكها، مرة هكذا. ومرة هكذا. ولكنها رغم اقرارها بصحة ذلك تريده دائم الحساسية المرهفة بالحب معها. ولكنه لا يلتفت إليها كثيراً. قدماها تقودانها إليه دائماً. مرة تبدو حزينة. ومرة تبدو فرحة. في كل مرة تمر بهذا المكان. تقف لتملأ نصف النافذة بجسدها المتفجر رغبة وحرارة في اللقاء. تنتقي زهورها في باقة تضمها أصابعها فتبدو مثل اللحن الموسيقي المتناسق. تحاكي الأزهار وهي في طريقها إليه.

الأزهار تذبل بعد تفتح. هي مثل الأزهار تتفتح فيها عطور الرغبة ثم تنطفىء تحت أقدام من تحب. لا تستطيع الخلاص. إنها أسيرة عواطفها ولكنها تريد أن تأخذ دورها في قيادة عواطفها ولو لمرة واحدة.

الأزهار تعطيها الأمثولة. هي تحاكي الأزهار في الأواني، تحس أنها تكلمها. هذه تقول لها خذيني أنا اليوم إليه.. من أجل أن ألتقي الزهرة الأخرى التي لا تستطيع أن تغادر الأواني إلا إذا جاءتها اليد المنقذة. إنها تنفذ للزهور رغبتها في لقاء واحد مع من تحب ثم لا فرق إن ذبلت في يد من تحملها أو إناء الزهر عند ذلك الرجل الذي لا يستطيع أن يمنحها الأمان الدائم.

الأزهار تشتعل فيها الرغبة مرة واحدة باللقاء ثم تنطفىء بالموت الذابل إلى الأبد. ولكنها هي في كل يوم أو في كل أسبوع تشتعل مرة وتنطفىء، تذهب إليه ساكنة. نصف ابتسامة على شفتيها مضيئة ونصف ابتسامة ميتة أحياناً تبتسم كلها. أحياناً تموت كلها، ولكنها لا تعرف متى تستقر، وينبت الأمان في أعماق قلبها رغبة فوارة وعاطفة لا تموت.

* * *

النافذة كل يوم تحس بالامتلاء.. الزهور تتطاول أعناقها في الأواني. الموسيقى تشكل لحناً متناسقاً من باقة الزهور. أصابع السيدة تمسك بالباقة. خطواتها لا تزال تقودها إليه وهي تحلم بأن تضع حداً لصمتها عندما تراه...

حلب